مناقشات المسلمين حول الحداثة والتقليد
(م. فيشر و م. عابدي)*

مراجعة دابرا ش.إيكرز

مايكل فيشر أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة رايس ومهدي عابدي طالب دراسات عليا يدرس لدى البروفسور فيشر. وقد تعاونا في كتابة وتحرير مجموعة من المقالات عن إيران المعاصرة. ومن المدهش مقارنة الأساليب الكتابية عند الإثنين. ففيشر من أتباع عالم الأنثروبولوجيا الشهير كليفورد غيرتس عندما كان يُدرّس في جامعة شيكاغو وهو (أي فيشر) يظهر الآن ميولاً لما يكتبه جاك دريدا الفيلسوف التفكيكي الفرنسي. ولذا فإن فيشر يُكثر من الاستشهاد هنا بكتابات دريدا. وفي المقابل فإنّ مهدي عابدي يكتب كتابةً مباشرة وبأسلوب واضح ودقيق، مما جعل الفصول التي قام بكتابتها الأكثر تفهماً ووضوحاً في هذا الكتاب.

الفصل الأول من الكتاب: «التنشئة الشيعية في إيران البهلوية» عبارة عن وصف لمراحل متفرقة من حياة عابدي في قرية إيرانية وفي الولايات المتحدة الأمريكية. ويربط عابدي وصفه لتطور حالته بحالة غيره ممن هو في وضعه، وقد استخدم هذا الأسلوب لإظهار كيفية تطور الطرق المختلفة لوعيه الأخلاقي بوصفه مسلماً والتي طورها عن طريق النمو الشخصي والسفر والترحال. ويبدأ عابدي وصفه لطفولته في قرية من قرى يزد. وفي تلك القرى كانت الأمية شائعة وكان الفلكلور شائعاً منتشراً عبر أشكال دينية مختلفة. ومن المدهش

(*) Michael M.J. Fischer & Mehdi Abedi, Debating Muslims: Cultural Dialogues in Post Modernity & Tradition, Madison: University of Wisconsin Press, 1990, 442 pages.

والممتع ما يذكره عابدي عن مهرجان عاشوراء في القرية حيث كان القرويون يبنون عوامات بحيث تكون القطعة المركزية مدهشة ورائعة يُنقل عليها من يمثل دور الحسين. ويناقش أيضاً اتجاهات والديه نحو اليهود والزرادشتيين، ويقدم معلومات قصصية عن شبابه في وصف كيف أن هذه الجماعات كانت منبوذةً وموصومة داخل مجتمع القرية المحلي. وقد أسست هذه السنوات المبكرة المعتقدات الأساسية عند عابدي بوصفه مسلماً شيعياً. وكان تحرك عابدي الأول من قريته إلى مركزٍ إقليميٍّ مهم لصناعة النسيج، وكذلك للتدين المحافظ. وهناك (أي في تلك المدينة) لعب رجال الدين دوراً مهماً في الوعظ ضد الحداثة لصالح الإسلام خلال الثورة الإسلامية عام 1979. وبعد إتمام المرحلة المتوسطة والثانوية في مهلا يربورج، أتمّ عابدي دراسته الثانوية في طهران حيث يتذكر وبشكل واضح المجادلات التي كانت تدور بين الماركسيين والإسلاميين. وينهي عابدي وصفه بالتعليم الجامعي في كنساس وتكساس حيث عاش بين الإيرانيين المنفيين في تلك الفترة. وكما يقول نفسه، هذه الأوصاف إنما هي محاولة لإظهار «التحول من مسلم أصولي إلى وعي كزمبوليتي (حضري) من طرف شخص تتجاوز تجربته الحدود الطبقية وكذلك الحدود الثقافية. وهو لذلك وصل لعوالم متعددة من التفسير والشرح، ومن ثم استطاع أن يخدم المهاجرين في معضلاتهم لإعادة التأقلم مع أوضاعهم الجديدة».

ويكتب فيشر الفصل الثاني: «محادثات قرآنية» حيث يناقش آراء دينية وهو يقوم بهذا عن طريق تقسيم المقالات إلى ثلاثة أجزاء. فيناقش أولاً التلاوة القرآنية (أداء القرآن). وهنا يعتمد فيشر على إبراز جدليات العلاقة: أنا ـ أنت مع الله. ويتطرق كذلك للعلاقة حسب المفهوم الإسلامي بين الله والنبي. وكذلك تلك المحادثات السردية بين الله والشيطان، وبين الله وموسى والخضر وهلمَّ جرا. ويناقش بعدها تفاسير القرآن بوصفها نصاً. ويستخدم التحليل الهرمونطيقي لتوضيح تشابك النص عن طريق الخلافات والمناقشات الجدلية وتوضيح كيف أن الإشكالية بالنسبة للخميني كانت تشمل أيضاً رجال الدين العاملين في مناصب أو أدوار حكومية. ويختتم فيشر مقالته بالعودة إلى

تذكيرنا بأنه بالنسبة لأولئك الذين في الغرب توجد أيضاً تقاليد نصرانية ويهودية للهرمونيطيقيا والجدليات والمحادثات، وأن هذه الإجابات طبيعية في أي خطاب أخلاقي بغض النظر عما إذا كان مكتوباً أو شفاهياً. لكن مع ذلك في إيران المعاصرة فإنها تقدم نموذجاً نظرياً جدلياً لبلدان العالم الثالث، داخل نظام عالمي ـ وهي تقدم نوعاً من الديمقراطية التعددية وتحمي الفروقات الثقافية دون أن تقدم مواقف ثقافية تدعي التفرد في امتلاك الحقيقة.

وعنوان الفصل الثالث: «الخوف من الاختلاف: الحاج روديو» ويعتمد فيشر هنا على دريدا لتحليل طقس الحج. وكلمة «اختلاف» تشير إلى فكرة ومفهوم دريدا حيث يستخدم كلمة يختلف ويخالف كمفهومين محوريين في تحليل طريقة استخدام الكتابة واللغة. فاللغة تعتمد على المتقابلات لإحداث أصوات ذات معنى، لكن مع ذلك فإن كل لفظة يمكن أن تبدل بحسب السياق بحيث يختلف المعنى النهائي. لذا فإن أطروحة فيشر هي أن بلاغة الإسلام المعاصر المُسيَّس تخشى الاختلاف وتمنع أو تحول دون ظهور ثقافة الاختلاف. فعلى سبيل المثال، «إنهم بالتأكيد متخوفون قلقون بشأن الرجولة ويصرّون على إخضاع المرأة. وهم يعبرون عن قلقهم نموذجياً عن طريق رفض وجود حقوق للأقليات ويصرون على المحو النهائي للفروقات الثقافية والدينية والطبقية والقومية باسم عالمية الإسلام»! ويتناول موضوع الحج، على أساس أسلوب دريدا بالإشارة إلى الجسد الأنثوي البديل في جوهر الأخلاق الإسلامية وعن طريق إلقاء الضوء على مركزية الحاجة في الحج بالإشارة إلى التناقضات الجوهرية في الخطاب القومي للتشيع (المذهب الشيعي) الذي يبقي كل الخطابات بعيدة عن المركز وغير مدعومة (المرأة) وكذلك يتحدى (الذكور) المتوترين. بعدها يتحول فيشر لكتابات مرتضى مطهري وعلي شريعتي. أما مرتضى مطهري فإنه يعيد تشكيل وتجديد صوت قوي لجماعة موجودة، وأما علي شريعتي فإنه قد أبدع جمهوراً جديداً عن طريق خطابه الشعري الذي يستلهم لغات عديدة، ويؤسس فلسفة وجودية للغة كما فعل سارتر. ويستخدم فيشر طبقة معمّمة من التحليل عن طريق إعادة تفسير كلمات مثل مستضعف وزور وزار وتزوير (فتنة القوة والخداع والذهب أو

المال) وكذلك طاغوت (صنم/ قائد مستبد) وكذلك عن طريق إعادة تفسير صور مهمشة مثل صورة هابيل وقابيل. ويؤكد فيشر أن هاجر وصورتها ذات أهمية خاصة لأنها علامة للوعي النسوي في العالم الإسلامي (أنظر على سبيل المثال قرة العين الإيرانية ونوال السعداوي المصرية) إذ ترمز في خطاباتٍ شعريةٍ ونثريةٍ لإباء الخضوع، كما تمثل تأكيداً للذات؛ وإن اختلفت المواقف عن المرويات الدينية والمأثورات الشعبية حول المسألة.

وفي الفصل الرابع المعنون: «التغير الاجتماعي ومرايا التقليد: بهائيو يزد» يقدم فيشر وصفاً إثنوغرافياً ثقافياً للجالية البهائية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي يزد حيث قام المؤلف بمعظم دراسته الميدانية الإثنوغرافية. ويزد مصغر ديني لإيران، وقد كانت أكبر حواضر الزرادشتية، كما كانت كذلك مركز الإسلام الإسماعيلي لفترة من الوقت. وكانت أيضاً موطن الشيخ أحمد الأحسائي قائد الحركة الشيخية وبها 12 كنيساً يهودياً. ولكن مع كل هذا فهي مشهورة بأنها واحدة من أكثر المدن الإيرانية المسلمة المحافظة بعد قم. كما أنها تحتل مكانةً هامةً في تطور البهائية في إيران. وفي المائة سنة الماضية قام المؤمنون الأتقياء بإلقاء خطبهم الدينية في يزد، وفي بعض الأوقات كانت الملجأ الآمن، على أنها في فترات أخرى كانت مكان الشهداء. وأثناء الثورة الحالية، ظهر منها آية الله صادقي لدعم ومساعدة الخميني، وأعلن أن البهائية كفر وتدليس والبهائيون يُعتبرون مرتدين عن الإسلام (ينبغي أن يقتلوا دون محاكمة أو استتابة). ولقد أدّى ذلك إلى قتل سبعة من البهائيين في بداية الثورة. وبالإضافة إلى المعالجة التاريخية البحتة للبهائية، فإن فيشر الذي يرى الجالية بوصفها تقدم مرآة للضمير ـ ومؤشراً للأخلاق التي يمكن على أساسها الحكم على الواقع ـ يحلّل أيضاً رسائل البهائية السابقة في يزد من أجل تتبع نماذج التغير في المواقع الخطابية والاجتماعية. ويقسم هذه المعالجة إلى خمسة أنواع من البلاغيات هي: الاتجاه السياسي والتوفيقية والعقلانية والمأساة والمفارقة. وهذه المعالجات هي الأجمل والأكثر أهمية في هذا الفصل. ويحلل فيشر المرحلة المبكرة في التوجه الألفي السياسي للبابية، سلف البهائية (1844 ـ 63) وكان الجدل في تلك الفترة يتميز بالنزعة المساواتية والمُسيَّسة

بل حتى والجدل الثوري السياسي الإقليمي ضد روسيا وبريطانيا العظمى. ويؤمن فيشر أن الكثير من الجدل الدائر اليوم في العالم الإسلامي حول الحكومة الإسلامية (كما هو الحال مثلاً في فكر الخميني) والخروج من التقليد، والاتجاه للإصلاح (والمقصود بذلك جماعات شريعتي ومجاهدي خلق) إنما هي ببساطة استمرار لمناقشات تقليدية تطورت في القرن التاسع عشر على أيدي الإسماعيليين والشيخيين والمتصوفة والبابيين وكذلك داخل حدود التيار العام في الشيعة الإثني عشرية.

إن إحدى السمات الممتعة والمدهشة لهذا الدين الذي يستكشفه فيشر طبيعته التوفيقية. فالبهائية تقوم على أديان أخرى. وعملية قبول جوانب من الدين يمكن أن تُرى بحسب الأقصوصة التالية: «البهاء هو المسيح العائد، البوذا الخامس، والإمام الثاني عشر (الغائب)، وشاه بهرام فرجافان، وتناسخ كريشنا، ورب إسرائيل رب المضيفين» وبدمج كل هذه العناصر، أصبحت البهائية وبشكل متزايد جذابة لقوميات أخرى، ولها مراكز تظهر في كافة أرجاء العالم. وأصبحت منظمة عالمية مضت بعيداً عن توجهها الإيراني المركز إلى توجه أوروبي ـ أمريكي، لذلك يزداد أتباعها الآن في العالم الثالث.

وفي الفصل الخامس: «الشتات: الذاكرة وإعادة الخلق» يصف عابدي تجاربه الحياتية بينما كان يعيش داخل الجالية المسلمة في هيوستن تكساس. وهذا الفصل ممتع يحاول فيه عابدي أن يعيش كمهاجر. فالإيرانيون في أمريكا، كما يخبرنا عابدي، مقسمون إلى حزبين: منفيين ومهاجرين. أما المنفيون فإنهم يختلفون عن المهاجرين الذين انتقلوا باختيارهم وحريتهم وهم يندمجون بشكل سعيد بينما يشعر المنفيون أنهم مشلولون أو أنهم معلقون في رحم غير طبيعي ومن ثم عاجزون عن الحركة إلى الأمام في حياة جديدة وفي الوقت نفسه غير قادرين على العودة إلى جذورهم. ويركز عابدي على المهاجرين، وبالذات على الذين لا يرغبون أو لا يستطيعون التخلي عن العناصر الجوهرية في ماضيهم، وبالذات مع مشاعرهم بأنهم مسلمون إيرانيون.

ووحدات عابدي للتحليل هي مقابلة أفكار الأصالة والهوية. فالأصالة تُعرّف على أنها النضال من أجل الحرية في أن يكون الإنسان ما هو فعلاً، بينما الهوية قد تشير إلى الحرية لما يرغب في أن يكون. ولتوضيح وجهة نظره، يعتمد عابدي على أفلام إيرانية عديدة مثل: السيد المنفي والفيلم الهزلي الخطيب (المتقدم لطلب يد فتاة) والفيلم عبارة عن كوميديا موقف عن حاج من الطبقة العاملة عاد من طهران إلى نيويورك بعروس إيرانية شابة. ويقيم أربعة من زملائه حفلة له، ذابحين خروفاً للمناسبة في حمام الشقة، وتتساقط قطرات من الدم على أرض الشقة ثم على مَن بالطابق السفلي. مما أدى إلى أن حارس العمارة يستدعي الشرطة خشية أن يكون السكان في تلك الشقة إرهابيين إيرانيين. وفي هذه الملابسات قتل الزوج وأصبحت الأرملة منفية في عالم جديد دون موارد سوى سرعة بديهتها مما دفعها للعمل على الخروج من سجنها الذي فرضه عليها زملاؤها الإيرانيون الذكور، أولئك الذين كانوا يصارعون لخلق حيوات جديدة. وينظر عابدي كذلك إلى التلفزيون الإيراني وبرامجه في كاليفورنيا إذ يقدم هذه الموضوعات، بشكل أساسي عن طريق تصوير إيران كما لو أنها رمز جسد في آلام الاحتضار. وهناك جوانب أخرى من حياة المهاجر الإيراني يذكرها في مناقشته وهم الإيرانيون أصحاب المطاعم وأصحاب متاجر السجاد والمساجد المحلية وجميعهم يحافظون على استمرارية أوضاع ثقافية أصالية.

وفي الجزء الثاني من هذا الفصل والمعنون: «تتمة» ينهي عابدي حديثه عن المهاجرين الإيرانيين بحكايات مدهشة من هيوستن. فقد عمل عابدي وبشكل حميم مع الجالية المسلمة وغالباً ما قام بدور المأذون وبالصلاة على الموتى. وكانت مهمته الأساسية هي إدارة المشاكل العملية داخل جالية دينية مختلطة. فعلى سبيل المثال، خلال إحدى الجنائز التي أقامها شيعي في مسجد يشرف عليه سني كانت هناك مباشرة مشاكل: فالسنة يكبرون أربع تكبيرات بينما الشيعة يكبرون خمس مرات، كذلك ألقى الإمام الشيعي خطبة طويلة أغضبت السنة الحضور. وبعد الانتهاء من المراسم تم دفن الجثمان في المقبرة المحلية في هيوستن حيث كانت للجالية المسلمة مساحة صغيرة، ولم

يكن من المفترض أن يدفن المسلم في مقبرة كفار. وفي حادثة أخرى، يقص علينا عابدي كيف أنه قام بترتيب زواج متعة بين إيراني شيعي وعروسه الأمريكية من الجنوب الكاثوليكي التي أرادت أن تحتفظ بدينها. فالمسلمون مسموح لهم أن يتزوجوا من «أهل الكتاب» لكن ليس زواج متعة مؤقت. لذا فإن عابدي قام بترتيب أمر الزواج بحيث لا يُنصُّ على مدةٍ له. ولقد أعجب الحل الإبداعي كافة المذهبيات الدينية المختلفة في الجالية.

وفي الفصل السادس المعنون: «ملاحظات ختامية: التحول السري في إيران: الوسائط الاتصالية الدنيا والرسوم الثنائية الثقافية» وهنا يقدم نقداً للّوحات الإعلانية والرسوم الكرتونية السياسية عن الثورة الإيرانية. ويظهر هنا كلٌّ من عابدي وفيشر كم الرسومات الغربية الحديثة سواء كانت رسوم كرتونية أو لوحات إعلانية مجذرة في التقاليد الإيرانية الأيقونية كأشكال فنية كما هو الحال في المنمنمات والخط. ومن الممتع أن يقول فيشر بأن المرئي قد فرض لفترة طويلة كمغلف جدلي للّساني ـ حيث تظهر الكلمات كما لو أنها زلقة، ويظهر المرئي غالباً كما لو كان مباشراً وواضحاً ـ ومناقشته بخصوص رمزية زهرة الزنبق رائع من حيث إنه يظهر مدى غنى تقليد الرسومات التي أسهمت طوال الوقت في الفنين الإيراني والأوروبي على حد سواء.

وفي الفصل النهائي المعنون: «حديث ما بعد النهاية: أحاديث بومبي والكلمة والعالم ورواية سلمان رشدي، الآيات الشيطانية» والفصل عبارة عن تحليل لردود الفعل على رواية سلمان رشدي هذه. ويرى فيشر رواية رشدي على أنها تمثيل للطبقة المثقفة العلمانية والطبقة الدينية وهما تنخرطان في حرب ثقافية طبقية وكل واحد من الطرفين يستخدم خطابات منظمة يفهمها الطرف الآخر جزئياً. وهذه الحرب قائمة على مستويين من مستويات التمثيل التعليمي الآتي: فعلى المستوى المحلي داخل إيران وباكستان ومصر من أجل ضبط وسيطرة الدولة ومن طرف الضمير العام الجمعي للجماهير، أما على المستوى الدولي فهي لخلق فراغ أو فضاء للتنوع الثقافي. ويختم الفصل بوصف ردود الفعل التي قامت في إيران والهند والباكستان وإنجلترا.

والموضوع المحوري لهذه المقالات المجموعة هو الأصولية الإسلامية كما تمارس في إيران. ويناقش المؤلفان تقليد النقاش الجدلي الذي قام حول التفسيرات التقليدية للقرآن ومقارنتها بالجهود المبذولة من طرف الأصوليين المحدثين للوصول إلى تفسير نهائي للقرآن.

هكذا يبقى كتاب «مناقشات المسلمين» نصاً ممتعاً بالنسبة للباحثين المهتمين بالدراسات الدينية في إيران المعاصرة.